اصوابهم على بعضهم بعضا حتى كان المخالف لقول كل واحد قد خرج عن الشريعة ولا
يكاد احدهم يعتقد في ذلك الوقت ان سائر ائمة المسلمين على هدى من ربهم ابدا لخلاف
صاحب هذه الميزان فانه جالس على منصة في سرور وطمانينة كالسلطان حاكم
بمرتبتي ميزانه على كل قول من اقوالهم لا يرى قولا واحدا من اقوالهم خارجا عن
مرتبتي الميزان من تخفيف وتشديد بل يرى الشريعة قابلة لكل ما قالوه لوسعها
فاعمل يا اخي بهذه الميزان وعلمها لاخوانك من طلبة المذاهب الاربعة ليحيطوا
بها علما ان لم يصلوا الى مقام الذوق لها بطريق الكشف كما اشار اليه قوله تعالى
فان لم يصبها وابل فطل وليفوزوا ايضا بصحة اعتقادهم في كلام ائمتهم ومقلديهم
ويطابق قلوبهم قولهم باللسان ان سائر ائمة المسلمين على هدى من ربهم ان لم يكن
ذلك كشفا ويقينا فليكن ايمانا وتسليما فعليكم ايها الاخوان باحتمال الاذى
ممن يجادلكم في صحة هذه الميزان قبل ذوقها وقبل ان تحضروه معكم حال قراءتها على علماء
المذاهب الاربعة فانه معذور ولا يكاد يسلم لكم صحتها لغرابتها وربما وافق هذا المذهب
الحاضر من هيبة لهم ورد المذهب الذي لم يكن احد من مقلديه حاضر العدم من يتعصب
لذلك المذهب وفي ذلك دلالة على مراعاته وجوه المخلوقين نسال الله العافية
ومما قررناه لك يا اخي انهمت الميزان الشعرانية المدخلة لجميع اقوال الائمة المجتهدين
ومقلديهم في الشريعة المحمدية نفع الله بها المسلمين وقد حبب لي ان اذكر لك
يا اخي قاعدة هي كالمقدمة لفهم هذه الميزان بل هي من اقرب الطرق الى التسليم لها
وذلك ان تبني اساس نظرك اولا على الايمان بالله تعالى وهو العالم بكل شيء والحكيم
في كل شيء ازلا وابدا لما ابدع هذا العالم واحكم احواله وميز شؤونه واتقن
كماله اظهره على ما هو مشاهد من الاختلاف الذي لا يمكن حصره ولا ينضبط
امره متغايرا في الامزجة والتراكيب مختلفا في الاحوال والاساليب
على حكم ما سبق به علم الله القديم وعلى وفق ما نفذت به ارادة العليم الحكيم فجاء
على هذه الاوضاع والتآليف واستقر امره على ما لا تنتهي غاياته من الشؤون
والتصاريف وكان من جملة بديع حكمته وعظيم الايه وعميم رحمته ان قسم عباده
الى قسمين شقي وسعيد واستعمل كلا منهما فيما خلق له من متعلق الوعد والوعيد
واوجد لكل منهما في هذه الدار بحكم عدله وسعة افضاله ما يصلح لشانه في حاله
وماله من محسوسات صورها ومعنويات قدرها ومصنوعات ابدعها

واحكام

واحكام شرعها وحدود وضعها وشؤون ابدعها فتمت بذلك امور المحدثات
وانعقد بذلك نظام الكائنات وكمل بذلك شان الزمان والمكان حتى قيل انه
ليس في الامكان ابدع مما كان قال تعالى في كتابه القديم لقد خلقنا الانسان
في احسن تقويم على انه سبحانه وتعالى لم يجعل كل نافع نافعا مطلقا ولا كل ضار
ضارا مطلقا بل ربما نفع هذا ما ضر هذا او ضر هذا ما نفع هذا او ربما ضر هذا في
وقت ما نفعه في وقت اخر او نفع هذا في وقت ما ضره في وقت اخر كما هو مشاهد في
الموجودات الحسية والمدركات المعنوية لمعان جلت عن الادراك بالافكار واسرار
خفيت الا على من اراد عالم الاسرار ومن هنا يتحقق المؤمن ان كلا ميسر لما خلق له
وان ذلك انما هو لاتمام شؤون الاولين والاخرين وان الله هو الغني عن العالمين
وحيث تعرفت لك يا اخي هذه القاعدة العظيمة علمت ان الله تعالى لم يكن يتعبد
من حيث ما كلفهم ابدا وان اختلاف ائمة هذه الامة في فروع الدين احمد عاقبة
واقوم رشدا وان الله تعالى لم يخلقنا عبثا ولم ينوع لنا التكاليف سدى بل لم
يلهم احدا من المكلفين العمل بامر من امور الدين تعبده به على لسان احد من المرسلين
او على لسان امام من ائمة الهدى المجتهدين الا وفي العمل به على وجهه في ذلك
الوقت اعلى مراتب سعادة ذلك المكلف المقسومة له حينئذ واللائقة بحاله
ولا يصرفه عن العمل بقول امام من ائمة الهدى الى العمل بقول امام اخر منهم الا وفيما
صرفه عنه انحطاط في ذلك الوقت عن الاكمل في درجة اللائقة به رحمة منه سبحانه
وتعالى بالعمل بقضية السعادة ورعاية للحظ الاوفر لهم في دينهم ودنياهم كما
يلاطف الطبيب الحبيب ولله المثل الاعلى وهو القريب المجيب لا سيما وهو الفعال
المختار في الاموات والاحياء والمدبر المريد لكل شيء من سائر الاشياء فانظر
يا اخي الى حسن هذه القاعدة ووضوحها وكم ازالت من اشكال لا منهم
وافادت من احكام محكمة فانك اذا نظرت فيها بعين الانصاف تحققت بصحة
الاعتقاد ان سائر الائمة الاربعة ومقلديهم رضي الله تعالى عنهم اجمعين على
هدى من ربهم في ظاهر الامر وباطنه ولم تعترض قط على من تمسك بمذهب من مذاهبهم
ولا على من انتقل من مذهب منها الى مذهب ولا على من قلد غير امامه منهم في اوقات
الضرورات لاعتقادك يقينا ان مذاهبهم كلها داخلة في سياج الشريعة المطهرة
كما سياتي ايضاحه وان الشريعة المطهرة جاءت شريعة سمحا واسعة شاملة قابلة